ستيفانو كياريني

إلى الأمام

مونيكا ماورير*

ترجمة: بسّام صالح

كان هناك، مستندًا إلى أحد أعمدة الكنيسة القريبة من بيته، يتأمّل، ويتابع المؤمنين في صَلاتهم. يستمع إلى قدّاس الراهب الذي أصبح صديقًا له: يجمعهما عمقُ العمل الاجتماعي، وقيمُ ثيولوجيا التحرير، والقناعةُ بأنّ هذا العالم يمكن بل يجب أن يتغيّر نحو الأفضل، حيث لا تداس فيه كرامةُ الإنسان او تُغتصَب، وتختفي منه كلماتٌ مثل «حرب» و«استغلال» و«احتلال» و«قهر» في العالم الجديد.

ستيفانو كان هناك يتأمّل ويلاحظ الأشخاصَ المؤمنين «كمن يبحث عن عناصر جديدة ليُكْمل بها نظريةً فلسفية،» على ما يقوله الراهبُ دون رومانو، الراهبُ الصديق، «وكان يضع في حسابه استحالةَ الوصول إلى العالم الجديد إذا ما قِيسَ ذلك بحياة الفرد، وأنّ كثيرين لن يصلوا لأنّ العملية التاريخية بطيئة؛ ولكنّه يناضل بالقوّة نفسها: فلقد كان مؤمنًا بالتأكيد، لا بالمعنى الضيق للكاثوليكي المحافظ، ولكنّه كان مؤمنًا خاصةً، وقبل كل شيء، بالإنسان.»

هذا الاهتمام العميق تجاه الإنسان وألم الناس شكّل جزءًا من الحامض الخلويّ (DNA) في دمه منذ نعومة أظافره، وكان يضعه تحت تصرّف الآخرين. فخلال سنوات المدرسة المتوسطة تسجّلَ في الكشّافة لمساعدة المرضى، و«كعادته كان يأخذ أيَّ تكليف مأخذَ الجدّ ويكرّس نفسَه لمجموعته بحيويةٍ وشغف،» حسبَ ما تقوله شقيقتُه أنطونيتا.

في احتفالات أعياد الميلاد المجيد عام ١٩٦٠ ـ ولم يكن تجاوز الحاديةَ عشرةَ من عمره إذ إنّه من مواليد ١٩٥١ ـ وكما هي التقاليد، يقوم التلاميذُ بتصميم البيئة التي وُلد فيها السيدُ المسيح. ستيفانو نفّذ فكرةً جديدةً، إذ أراد أحياءَ الطبقات الاجتماعية الصاعدة في تلك الفترة: من عمّال، وعاطلين عن العمل، ومنبوذين. المشهد لم يكن في الأراضي المقدّسة، وإنّما في مصنع وورشاتِ بناءٍ، وثمة يافطات كُتب عليها «كلّه خلص» و«لا أماكن شاغرة،» بينما السيد المسيح بقي من دون سقف يحميه! قسمٌ من المؤمنين كان فرحًا، والقسمُ الثاني عبَّر عن احتجاجه على هذا «التصميم الشيوعي،» فتمّت إزالتُه. وبذلك، انتهى الوفاقُ بين الكشّافة والكنيسة وستيفانو.

وفي الوقت نفسه كان ستيفانو أحدَ المتطوّعين في الصليب الأحمر الإيطالي. ولكنّه اكتشف أنّه، خلْف الأعمال الخيرية التي لا تُنْكر، كان هناك تلاعبٌ وتنافسٌ، وهما من الأمور التي لم تكن تعجب ستيفانو، ولذلك أوقف مشاركتَه.

يقترب عامُ ٦٨، وحركتُه الجماهيريةُ الواسعة تَشْمل أيضًا مدرسةَ جوليو شيزره، حيث بدأتْ تظهر التوجُّهاتُ السياسيةُ المتناقضة، والتشاجراتُ والمسيرات، والمناشيرُ، والشرطةُ تقوم بإيقاف النشطاء. لكنّ ستيفانو، رغم خجله الواضح ظاهريّاً، لم يتراجعْ إلى الوراء أبدًا.

* ـ مخرجة أفلام وثائقية، عضو مؤسس في لجنة «كي لا ننسى صبرا وشاتيلا.»

مع مونيكا ماورير أمام بوّابة فاطمة، في جنوب لبنان.

لم تكن مطالعاتُه هي التي تدفعه باتّجاه الالتزام الاجتماعي، بل العكس: فقد كان قلقُه الاجتماعي وإحساسُه العميق بمعنى العدالة هما دافعَه إلى مزيد من التعمُّق التاريخي والسياسي من خلال المطالعة: بدايةً من خلال الدوريّات التي كانت تدور في بيت كياريني، كـ **لونيتا** صحيفةِ الحزب الشيوعي، و**بايزي سيرا** القريبة من الحزب، ومجلة **إكسپرسو**، ومن ثم من خلال كتّابٍ ومحلّلين أكثر تخصُّصًا.

كان ستيفانو يحبّ الكتابةَ للكشف عن أمراض المجتمع، والتعبير عن السياسات الجديدة الملحّة الناتجة منها. وفي أعوام السبعينيات، كتب معبِّرًا بأسلوبٍ حديثٍ نابعٍ من تكوينه الطبقي.

اختار كليّةَ الطبّ بلا تردُّد، وكرّس وقتَه بشغفٍ للدراسة، وطلب أن يبدأ بالممارسة العملية في أقرب وقت ممكن. ولكنْ بعد ثلاث سنوات حدثتْ قطيعةٌ مفاجئة، وابتعد عن الكليّة. تَذْكر شقيقتُه: «لم نفهمْ أبدًا السببَ، وأيُّ جدل في هذا الموضوع كان يسبِّب له ألمًا كبيرًا.»

بعد ذلك تسجَّلَ في كليّة العلوم السياسية، وهو ميدانٌ أكثرُ توافقًا مع موهبته الصحافية، بعد أن أصبحت الصحافةُ خلال ذلك عملَه الأساسي. وكان يحلم بالمشاركة في تحرير الصحيفة التي يتعاون معها. وقد تحقّق هذا الحلمُ عامَ ١٩٨٢. في تلك الفترة كان اهتمامُه بالمسألة الإيرلندية، وسفراتُه المتعددة إلى بلفست، قد سمحتْ له بفهم واقعٍ كان يبدو عن بُعدٍ وكأنّه حربٌ دينية. ومن هذه التجربة خرَج مقتنعًا بأنّ عليكَ، كي تفهم قضيةً ما، أن توجَدَ في المكان [الذي تجري فيه أحداثُها]. وبقي وفيّاً دائمًا لهذه القناعة طوالَ ٢٥ عامًا، فكان المبعوثَ «الأكثرَ شجاعةً ووضوحًا» لصحيفة **المانفيستو** (وعلى هذا لم يختلف أحد في **المانفيستو**).

كان مرهفًا وحسّاسًا. وكان في الوقت نفسه صلبًا وعنيدًا وغيرَ مستعدّ لأيّ مساومةٍ على مبدإ حقّ تقرير المصير للشعوب وحقِّها في مقاومة الاحتلال.

❖ ❖ ❖

اغتيال وائل زعيتر، وهو شاعرٌ وممثّلُ حركة «فتح» في إيطاليا، في أكتوبر ١٩٧٢، دَفَعَ ستيفانو إلى الاهتمام بفلسطين. وفي منتصف أعوام الثمانينات، سمّاه المؤتمرُ التأسيسي لـ «جمعية السلام،» وبالإجماع، «سفيرًا فوق العادة» للأراضي الفلسطينية، ولبناء علاقاتٍ سياسيةٍ مع منظمة التحرير الفلسطينية.

اتّخذ ستيفانو خيارًا نهائيّاً مع القضية الفلسطينية. كتب عامَ ٢٠٠٠: «لا احترام للفلسطينيين، لا أحياءً ولا أمواتًا. ألم تكن فلسطينُ أرضًا بلا شعب، وأُعطيتْ لشعب بلا أرض [غولدا مائير]؟ وبالتالي، فإنّ ثلاثة ملايين ونصف المليون من الناس غيرُ موجودين رسميّاً. وكذلك فإنّ الـ ٣٥٠،٠٠٠ لاجئ في لبنان، القادمين من الأراضي الخصبة في الجليل، غيرُ موجودين في هذا العالم، وغيرُ موجودين على طاولة المفاوضات، مع أنّ القرار ١٩٤ يثْبت حقَّهم في العودة إلى وطنهم. فهل يفكّر العالمُ حقيقةً أنّه يمكن الوصولُ إلى السلام بتجاهل وجودهم؟ وهل يفكّر العالمُ فعلاً أنّه يمكن الاستمرارُ في حرمانهم البيتَ والعملَ أو الدفنَ الكريمَ كما هو الحالُ في شاتيلا؟ نحن في

صحيفة **المانيفيستو** لا نفكّر مثلَ العالم. وقرّرنا أن نناضل كي تبقى ذكرى أولئك الموتى حيّةً لا تُنسى.»

بعد أيام قليلة من وصول القوات الدولية إلى بيروت لتوفير الحماية للسكّان المدنيين في المخيمات، عقب خروج الفدائيين الفلسطينيين، قُتِلَ ٥٠٠٠ فلسطيني ولبناني من سكان مخيّميْ صبرا وشاتيلا بين ١٦ و١٨ سبتمبر ١٩٨٢ على أيدي ميليشيات الكتائب الموالية لإسرائيل، وبإشراف ودعم لوجيستييْن من الجيش الإسرائيلي الذي كان قد احتلّ بيروتَ الغربية قبل ذلك بساعات قليلة. المجزرة، التي استمرّت ما يزيد على الأربعين ساعةً، كانت ستؤدّي ـ بحسب نيّة وزير الدفاع السابق آرييل شارون ـ إلى الحلّ النهائي لقضية ٤٠٠،٠٠٠ لاجئ فلسطيني في لبنان، من خلال إرهابهم ودفعهم باتجاه بلدانٍ عربيةٍ أخرى، بعيدًا عن فلسطين. لم يَدْفعْ شارون ثمنَ جرائم الحرب التي ارتكبها، بل أصبح رئيسًا لوزراء إسرائيل. ولجنة التحقيق القضائي، المعروفة بـ «لجنة كاهان،» حَمّلتْ شارون «مسؤوليةً شخصيةً غيرَ مباشرة،» ولكنْ من دون نتيجة تُذكر. إلاّ أنّ القانون البلجيكي، بعد تعديل إضافيّ تمّ إقرارُه عام ١٩٩٩، سَمَحَ بمحاكمة مواطنين أجانب ارتكبوا جرائمَ حرب في دول أخرى، وذلك على طريق الوصول إلى «القضاء الدولي.» وبعد العديد من الدعاوى المتعلّقة بمجزرة صبرا وشاتيلا، والمرفوعة من أهالي الضحايا الفلسطينيين، قرّر القضاءُ البلجيكي فتحَ ملفّ تحقيق بحقّ شارون. وعليه، تشكّلتْ لجنةٌ دوليةٌ لمحاكمة شارون، كان ستيفانو أحدَ أعضائها وشارك في شهر يونيو ٢٠٠٠ في ندوة عُقدتْ في بيروت لشبكة المنظّمات العربية غير الحكومية ـ وهي مؤسّسة تكوّنتْ عامَ ١٩٩٥ لتعزيز دور المنظّمات الأهلية غير الحكومية في المجتمع العربي وللمساهمة في تطوير مجتمعٍ مدني ديموقراطي، وتضمّ ٦٥ منظمة من ١٢ دولة عربية.

زياد عبدالصمد، المديرُ التنفيذي للشبكة العربية، قَدّم ستيفانو إلى قاسم عينا.[1] يقول قاسم عينا: «لقد شعرنا فورًا بأنّنا قريبون جدّاً وكأنّنا إخوة.» قاسم هذا شخصيةٌ تاريخيةٌ في مؤسّسات الثورة الفلسطينية، تعرّفتُ إليه عامَ ١٩٧٧، وكان أشبهَ بأبي «بيت أطفال الصمود،» وهو ما يشْبه دارَ الأيتام، أقامته منظمةُ التحرير الفلسطينية وأسّسه عامَ ١٩٧٦ الاتحادُ العامُّ للمرأة الفلسطينية بعد مجزرة تلّ الزعتر. الصداقة بين ستيفانو وقاسم، والتي بُنيتْ على القيم المشتركة، كانت أحدَ أسباب بقاء «بيت أطفال الصمود» طيلة هذه السنوات، إلى جانب صحيفة **السفير** لصاحبها طلال سلمان، مرجعيةً سياسيةً حيويةً ولوجيستية لعمل لجنتنا في لبنان. وفي الإطار نفسه تعرّف ستيفانو إلى طلال سلمان، صاحب ورئيس تحرير صحيفة **السفير** ذاتِ الاعتبار العالي، والتي قَدّمتْ دعمًا هامّاً إلى لجنة أهالي ضحايا صبرا وشاتيلا، وإلى حملة محاكمة شارون. ومن هنا وُلدتْ فكرةُ إنشاء «لجنة كي لا ننسى صبرا وشاتيلا.»

وكما كتب ستيفانو على صفحات **المانيفستو** في ٢٠٠٠/٩/٤: «ثمانية عشر عامًا مرّت، ولم يدفعْ أحدٌ الثمنَ. بل إنّ ضحايا المجزرة لم يَجْرِ دفنُهم بطريقة كريمة أيضًا. أكبرُ مقبرة جماعية معروفة، وتقع على مدخل مخيّم شاتيلا، وتبعد مسافةً قليلةً عن سفارة الكويت، أصبحتْ مجردَ ملعبٍ بائس مليء بالغبار، ومكانٍ تُلقى فيه نفاياتُ السوق القريبة والأوساخُ المختلفة. لا توجد أيُّ علامة أو إشارة تذكّر بوجودِ هذه المقبرة الجماعية وتطلب احترامَ الضحايا.»

لم يدّخرْ ستيفانو جهدًا، مستغلاً الكاريزما والهيبةَ والقدرةَ السياسيةَ التي كان يتمتّع بها، لكي ينظّم، وبأسرع وقت ممكن، وفدًا من برلمانيين (مثل لويزا مورغانتيني، عضوِ البرلمان الأوروبي ونائبةِ الرئيس) ومثقفين وممثّلين عن المنظّمات الأهلية غير الحكومية، كي يطالبوا السلطات اللبنانية، التي لها علاقاتُ تعاونٍ ممتازةٌ ببلدنا (إيطاليا)، للعمل على إعطاء ضحايا المجزرة حقَّهم في أن يوارَوْا الترابَ بصورةٍ كريمةٍ ولائقة.

تجدر الاشارةُ إلى أنّه خلال الذكرى الخمسين للنكبة، وبالتحديد يوم ٩ أبريل ١٩٩٨، قامت مجموعةٌ من الديموقراطيين اللبنانيين والفلسطينيين بتنظيف المنطقة. ولكنْ بعد أيام قامت فئاتٌ أخرى بإلقاء النفايات والقمامة في المكان نفسه، كما قامت بتخريبه.

ولكنْ يومَ ٢٠٠٠/٩/١٧، يومَ «الذاكرة في الساحة» كما كتب ستيفانو في مقالة له، «تظاهَرَ اللاجئون الفلسطينيون في الساحة لأول مرة منذ وقوع المجزرة، وعلى وجوه كبار السنّ والنساءِ الكثيراتِ علاماتُ الانفعال الكبير.» «كان فعلاً يومًا عظيمًا بالنسبة إلينا جميعًا،» على ما تقول إحدى السيدات الفلسطينيات من المنظّمات الأهلية، «والأسبابُ كثيرة: فقد استعدْنا حقَّنا في التظاهر في الشوارع، وحقَّنا أيضًا في المطالبة بالعمل والتملّك وفي حياة أفضل من الناحية الإنسانية ـ وكلُّها أمورٌ نحن محرومون منها في لبنان.»

النجاحُ الكبيرُ للمسيرة التي نظّمتْها المنظماتُ غيرُ الحكومية الفلسطينية واللبنانية، لمرافقة الوفد الإيطالي الذي شكّلتْه

---

١ ـ المنسّق العامّ لهيئة تنسيق الجمعيات الأهلية العاملة في التجمّعات الفلسطينية ـ لبنان.

ستيفانو في مؤتمر صحافي عام ٢٠٠٥ مع رئيس بلدية الغبيري السيد محمد سعيد الخنسا، ويبدو إلى يمينه المترجم بسّام صالح.

صحيفةُ **المانيفستو**، بالاشتراك مع المولود الجديد «لجنة كي لا ننسى صبرا وشاتيلا،» لم يهدفْ فقط إلى أن يقول للناس: «لستم وحدكم!». يقول قاسم عينا: «نحن في حاجة إلى تضامنكم. واهتمامُ وسائل الإعلام المحلّية والعالمية هو نتيجة فورية؛ إنّه يساعدنا في مفاوضاتنا وإصرارنا على المطالبة بالحقوق الإنسانية المدنية للفلسطينيين.»

عندما وصلْنا مدخلَ منطقة المقبرة الجماعية ظهر لنا فورًا أنّ البوّابة القديمة قد أُبْدلتْ بواحدة جديدة، وفوقَها قوسٌ كُتب عليها ما يذكّر بالشهداء. الجدار تمّ طلاؤه باللون الأبيض، وأزيلت كافةُ الأوساخ والقاذورات التي كانت تغطّي المقبرة، وقامت الشاحناتُ بإلقاء أطنان من التراب على أرض المقبرة. وهذا كلُّه بفضل رئيس بلدية الغبيري، محمد سعيد الخنسا [أبو سعيد] من حزب الله، الذي يتّبع تقاليدَ الحركة الوطنية التي ترى الفلسطينيين واللبنانيين متّحدين في مقاومة العدوان الصهيوني. وقد أقام ستيفانو علاقةَ أخوّةٍ واحترامٍ وصداقةٍ مع أبي سعيد.

❖ ❖ ❖

تدهور الوضعُ السياسي في الشرق الاوسط عامَ ٢٠٠١، بسقوط عملية اوسلو، التي تجاهلت اللاجئين الفلسطينين. ثم اندلعت الانتفاضةُ الثانية، التي أضاءت الأملَ من جديد. غير أنّ الأوضاع الحياتية المريرة التي أُجبروا عليها بقيتْ تصرخ في الفضاء. ولهذا قامت المنظماتُ الأهليةُ الفلسطينية غيرُ الحكومية، والاتحادُ العربي للمجتمع المدني، ومنتدى المنظمات غير الحكومية في لبنان، بالاشتراك مع الشبكة العربية للإنماء، بتوجيه نداء بأن يكون يومُ ١٧ سبتمبر اليومَ العالميَّ للذكرى والتضامن مع ضحايا العدوان الإسرائيلي، وبأن يكونَ مركزُه بيروتَ من أجل أن يَغْلب الحوارُ على رياح الحرب التي بدأتْ تعصف في الشرق الأوسط . وإلى أن يتمّ تنفيذُ قرارات الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين (انسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة، وحقّ عودة اللاجئين)، يجب إعطاءُ الفلسطينيين في لبنان إمكانيةَ حياةٍ تستحقّ هذا الاسم. ولذا يجب إلغاءُ القوانين اللبنانية التي تميِّزهم في مجال العمل والتملّك.

كثيرون تجاوبوا مع هذا النداء: فالوفد الإيطالي كان مشكَّلاً من برلمانين يمثّلون مختلفَ الأحزاب (الخضر، الديموقراطيون اليساريون، حزب الشيوعيين الايطاليين، البرلمان الأوروبي عبر النائبة لويزا مورغانتيني عن حزب إعادة التأسيس الشيوعي، إضافةً إلى أبرز المنظّمات غير الحكومية الإيطالية). والأهمّ من ذلك أنّه، ولأول مرة، تشارك المنظماتُ الأهليةُ من فلسطين المحتلة، ومصر، وسوريا، والمغرب، والبلدان الأوروبية. وقامت هذه الوفودُ بجولة في الجنوب اللبناني شملتْ غالبيةَ المخيّمات الفلسطينية، وقامت بزيارة سجن الخيام (سابقًا) الذي حرّرتْه المقاومةُ اللبنانيةُ عامَ ٢٠٠٠.

قاسم عينا، من «بيت أطفال الصمود» ومنسّقُ المنظمات الأهلية الفلسطينية، قام بالتحضير لهذه الجولة بالتعاون مع الشبكة العربية للإنماء، وتضمّنتْ لقاءاتٍ سياسيةً (مع رئيس الجمهورية اللبنانية إميل لحود، والزعيم الدرزي وليد جنبلاط، وممثّلِ منظمة التحرير الفلسطينية السابق شفيق الحوت، وكافةِ

الفصائل الفلسطينية في المنطقة)، ولقاءاتٍ ثقافيةً مع المخرجيْن السينمائييْن (مي مصري وجان شمعون)، ولقاءاتٍ علمية مع د. بيان الحوت صاحبةِ أكبرِ وأكملِ بحثٍ عن المجزرة.

❖ ❖ ❖

جاءت أحداثُ الحادي عشر من سبتمبر محْدثةً تغيُّرًا عميقًا في المناخ السياسي تجاه العالم العربي عامةً، وتجاه القضية الفلسطينية بشكلٍ خاصّ. وارتفعتْ دعواتُ «صدام الحضارات» بين الغرب والشرق. وبتأثيرٍ ابتزازيّ، دُمِغَ أيُّ انتقاد لإسرائيل، ولسياستها الاحتلالية التوسعية ولتحالفها الحديدي مع الولايات المتحدة، بالعداء للسامية والإرهاب. وهذا ما قيّد حركةَ التضامن مع فلسطين بشكلٍ ملحوظ.

في هذه الظروف الصعبة، أحسّ ستيفانو بضرورةٍ وأهميةِ توسيع شبكة التضامن، وأيضًا لإعطاء قوة أكثر لـ «لجنة كي لا ننسى صبرا وشاتيلا.» ولذلك وَضَع قدراته الفائقةَ في تجميع قوًى مختلفة لتأسيس «الملتقى الفلسطيني» المكوَّنِ من: سيرجو كارارو، وجرمانو مونتي، وروبيرتو لوكيتتي، وستيفانو، وبسّام صالح الرئيسِ السابقِ للجالية الفلسطينية في روما. والهدف: تحطيمُ الصمت الذي أطبق على القضية الفلسطينية وعلى عمليات تجريم الفلسطينيين التي بدأتْ تُظْهرهم وكأنّهم جميعًا من الكاميكاز [الانتحاريين]، وتناسى البعضُ متعمِّدًا أيَّ حديث عن الاحتلال الإسرائيلي. وقد دعا «الملتقى الفلسطيني» إلى الإعداد لمسيرة شعبية في روما على المستوى الوطني دعمًا لفلسطين، وحَدَّد تاريخَها يومَ ٩ مارس ٢٠٠٢.

لم يدّخرْ ستيفانو جهدًا في الإعداد لهذه المسيرة، وعلى مدار الأشهر الأربعة التي سبقت المظاهرةَ، واضعًا قدرتَه وكفاءاتِه في جمع التناقضات على هدف مشترك. فتجوّل في إيطاليا شمالاً وجنوبًا لتعبئة المواطنين على برنامج المظاهرة السياسي، الذي مازال صالحًا حتى اليوم. وكان يطالب:

- بانسحاب القوات الإسرائيلية وإزالة المستوطنات من فلسطين.
- بحقّ تقرير المصير للشعب الفلسطيني، وإقامةِ الدولة الفلسطينية المستقلة، وعاصمتُها القدسُ الشرقية.
- بحقّ عودة اللاجئين الفلسطينيين.
- بالإفراج عن كافة السجناء الفلسطينيين.
- بإرسال مراقبين دوليين لحماية السكّان الفلسطينيين.

حظيت المظاهرةُ بمشاركة جماهيرية واسعة. ذلك أنّ ١٢٠،٠٠٠ مواطن هتفوا لفلسطين وحقوق الفلسطينيين، وأصبحت المظاهرة تُذْكر بأنّها أكبرُ مسيرةٍ لصالح فلسطين ليس فقط في إيطاليا وإنما في أوروبا أيضًا. وقد تحدَّث ستيفانو أمام المتظاهرين باسم الجميع: فهو ضمانةٌ ونقطةُ تقاطعٍ للوحدة في دعم القضية الفلسطينية ونضال شعبها، من دون أيّ تنازل أمام المواقف المطالبة بـ «الاتّزان» و«عدم الانحياز» ـ تلك المواقف التي لا تميِّز بين الاحتلال ومَنْ يقع تحت الاحتلال، ولا تفرِّق بين الظالم والمظلوم.

وعلى مشارف الذكرى العشرين للمجزرة، بدأ ستيفانو كياريني بالإعداد لتنظيم وفد إيطاليّ لإحياء الذكرى المريرة، والتي تأتي كغيرها أكثرَ مرارةً. فبعد مرور عشرين عامًا يبدو أنّ كلّ شيء بقي على حاله: فالعدالة لم تأخذْ مجراها، والعالمُ يتجاهل مَنْ تبقّى مِنْ ضحايا المجزرة، رغم عدم وجود أيّ شكّ في المسؤولية الدولية. وفي الطرف المقابل، وكما كان في السابق، هناك مَنْ يَرفض إدارةَ ظهرِه ونظرِه في الاتجاه المعاكس، بل وبقي في الجحيم ليدلي بشهادته، مثل المصوّر ريوتشي هيروكاوا، وهو أولُ مصوّر دَخل المخيمَ بعد المجزرة، أو ألِنْ سيغال، الممرِّضة الأميركية في مستشفى غزة؛ وقد عادا كلاهما لأوّل مرة بعد عشرين عامًا ليرفعا صوتيْهما معنا: «لن ننسى.» الإعداد الممتاز الذي قام به ستيفانو لاحياء الذكرى العشرين امتدّ ليَشْمل أيضًا العربَ الأميركيين، والإسبانَ، والفرنسيين، والماليزيين، والألمانَ، والدولَ الإسكندنافية، إضافةً إلى الوفد الإيطالي الكبير.

وبمناسبة الذكرى ٢٢ للمجزرة عامَ ٢٠٠٤، كتب ستيفانو كياريني في مقالةٍ له بتاريخ ٢٠٠٤/٩/١٨ يقول:

«يبدو لأول مرة أنّ الرؤساء [اللبنانيين] والمدينة على حوارٍ؛ فقد وحّدتْهم الذكرى... والكلماتُ التي استقبلَنا بها الرئيس لحّود في قصر الرئاسة في بعبدا لا تترك مجالاً للازدواجية: صبرا وشاتيلا تشكّلان نقطةً سوداءَ في تاريخ الإنسانية، وهذا ما يجب أن لا ننساه. كلماتُ [الرئيس] واضحةٌ وفي الصميم، وهي بالتاكيد ليست سهلةً إذا ما أَخذْنا في الاعتبار أنّ الرئيس إميل لحّود كان في السابق قائدًا للجيش، وهو مسيحي ماروني، وبالتالي أخٌ في الدين لجزءٍ كبيرٍ من أولئك الذين كلّفهم شارون 'بتنظيف' صبرا وشاتيلا.»

أحدُ المؤشِّرات الإيجابية الهامة لهذا التعاطف الجديد هو «الأيام السينمائيةُ» في بيروت، وقد افتُتحتْ بعرض فيلم «باب الشمس» للمخرج يسري نصر الله. الفيلم يروي مأساةَ ثلاثة أجيال من اللاجئين الفلسطينيين، وهو مأخوذٌ عن قصةٍ للكاتب اللبناني إلياس خوري تحمل العنوانَ نفسَه.

❖ ❖ ❖

على أنّ ستيفانو، رغم تفرّغه للعمل الصحفي والتضامني مع فلسطين، لم ينسَ إيطاليا وما كانت تمرّ به في ظلّ حكم بيرلوسكوني الذي ارتمى في أحضان «الحرب المسبَّقة والدائمة» التي أرادها جورج بوش الابنُ، جاعلاً من إيطاليا بلدًا

مع الرئيس اللبناني إميل لحّود عام ٢٠٠٠، وتبدو إلى يمين الرئيس لويزا مورغنتيني عضو البرلمان الأوروبي، وستيفانو كياريني، وإلى أقصى يساره موسوليني موريتسيو مسؤول العلاقات الدولية في الحزب الشيوعي الإيطالي وعضو لجنة «كي لا تنسى صبرا وشاتيلا.»

مرتبطًا، وانتهى بقران الموقف الإسرائيلي اليميني ومشاريعه لقضم ما تبقّى من فلسطين. فقرَّر أن يرشِّح نفسَه للانتخابات التشريعية لعضوية مجلس النوّاب كمستقلّ ضمن قوائم حزب الشيوعيين الإيطاليين، في انتخابات عام ٢٠٠٦. وكان يفسِّر خيارَه هذا «بدعم المواقف الجيِّدة لهذا الحزب من القضية الفلسطينية، ولمواجهة تحالف اليمين الذي يقوده بيرلوسكوني.» ولم يكن ستيفانو يرغب في الفوز، وإنّما في دعم برنامجٍ سياسي مؤيِّد للقضية ومعادٍ للحرب.

وفي العام نفسه أصرّ ستيفانو على الذهاب إلى موعده السنوي مع بيروت لإحياء ذكرى صبرا وشاتيلا الرابعة والعشرين. فلم نتردَّد ـ أمام أكثر من ألف شهيد، ومليون مهجَّر، وخسائرَ ماديةٍ جسيمةٍ، وأمام الطرق والجسور المدمَّرة بعد شهر كامل من القصف الإسرائيلي ـ في أن نكون إلى جانب ستيفانو مع وفدٍ إيطالي كبير في لبنان، لنقدِّم تضامنَنا مع الشعب اللبناني ومقاومته ضد عنجهية القوة العسكرية الإسرائيلية الهائلة.

عاد ستيفانو من بيروت يَحْمل في رأسه فكرةَ تحويل «لجنة كي لا ننسى» إلى جمعيةٍ لا تهدف إلى الربح، وإنّما لإعطائها الصبغةَ القانونية. فالتقى بأقرب معاونيه (ستيفانيا ليمتي، مونيكا ماورير، وماوريتسيو موسوليني)، وقرَّروا تحويلَ اللجنة إلى جمعية تهدف إلى إعطاء استمرارية محدَّدة للعمل الاجتماعي والسياسي المناصر للاجئين الفلسطينيين من أجل توفير احتياجاتهم الملحّة وحقّهم في العودة إلى وطنهم. ولكنّ لعبة القدر أرادت أن توصل وثائقَ تسجيل الجمعية لدى المحكمة قبل يومٍ واحدٍ من وفاته يوم ٣ فبراير ٢٠٠٧.

❖ ❖ ❖

بفضل ستيفانو وعمله السياسي الفائق، مازلنا نتجوّل ونتحدّث عن فلسطين برأسٍ مرفوعٍ وبصوتٍ ثابت. ولا نبالغ إنْ قلنا إنّ حياته مستمرةٌ بالمعارك التي يخوضها رفاقُه. والحقّ أنّ مواصلة معركته، وبالروح التي حملها، هي أفضلُ عملٍ لتخليده. «نسير إلى الأمام»: تلك كانت جملةً يردِّدها ستيفانو باستمرار. وفعلاً، لم تتوانَ جمعيةُ «كي لا ننسى» في سبتمبر ٢٠٠٧ عن إحياء الذكرى الخامسة والعشرين لمجزرة صبرا وشاتيلا، فكانت على رأس وفد من ٥٠ شخصًا. وكان ستيفانو معنا، وكان في المخيمات حيث كانت روحُه تخيِّم علينا.

إلى الأمام نحن سائرون.

إيطاليا